

من جديد «حضارة الطين».. شاكر مصطفى ومنظومة القيم والطين الانسان يظن أنه يصعد إلى الأعلى.. والحق أنه إلى الدرك الأسفل

إ. عامر فؤاد عامر

«.. اشتغل في كتابة التاريخ، فكان المؤرخ المشهود له في براعة التفكير، وفي جمال التعبير. حاز عن جدارة لقب المؤرخ، الذي ينشد الدقة، الموضوعية، يقرؤه الباحث فتشده الطريقة التي عالج فيها موضوعاته، وتروق له تحليلاته، وتحليلاته، فلا يمل من متابعة قراءة إنجازاته، وتأخذ القارئ الهادي المتأب عباراته الأخاذة، بارع في صياغة اللغة، حاز منذ البدايات إعجاب الكتاب والمتأدين. وصفه المتابعون بأنه الأديب والمؤرخ، ونعوته بلقب أديب المؤرخين، والمؤرخ الأديب، والأديب المؤرخ، فلم يظلموه، ولم يجلالموه». هذه الكلمات من مقدمة كتاب «حضارة الطين» للمؤلف الراحل الدكتور «شاكر مصطفى» في صدور جديد عن اتحاد الكتاب العرب وهذا الاختيار موفق لما يحمله الكتاب من ثقافة وفكر.

يُقسم الكتاب إلى جزأين اثنين هما: «في الحضارة»، و«في الإنسان»، ويتم مناقشة الشكل الحضاري للبشرية، وكيف تطورت، ولماذا أصبحت بشكل يختلف عن شكلها الأوثي، ودراسة الأسباب في ذلك، وملاحظة الخلل، والعمل على تأطيره من أهل الفكر والعلم.

حضارة الطين

يرتح الكاتب في حضارة الطين فقرته عن إنسان اليوم، الذي يعتقد نفسه يتجه في سلم الحضارة باتجاه الأعلى، ويشير لطفه التطور بأنها مرتبطة بالتكنولوجيا والاختراع، في حين أن الحقيقة تشير إلى أنه يتجه للدرك الأسفل، لأنه يهمل الأخلاق والمبادئ الإنسانية. في هذا القسم يشير الكاتب إلى سطح الإنسان بالجنز المادي، وانشغاله بالحروب والرغبة في السيطرة، ولعل ما ذكر في هذا القسم «حضارة الطين»، هو مؤشر حقيقي لما يجري اليوم والنهاء الإنسان بلغة التدمير، ونفوق الأثائية على حساب الإنسانية، وصراع الوجود ودفن الهوية لبعضنا بعضاً، ولا بد من الإشارة إلى أن الكاتب قد خذ هذا الكتاب في أربعينيات الماضي، لكن كلامه ينطبق على ما يحصل في أرضنا اليوم، وفيه يدعو أيضاً إلى أن لفة احترام الإنسان لأخيه الإنسان هي اللغة التي سندوم.

حضارة القلق

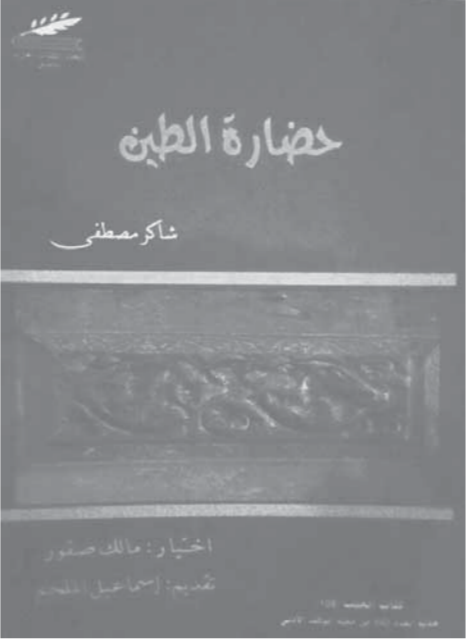
تلقي نظرة سريعة على أفكار هذا القسم، التي ينفي خلالها الكاتب «شاكر مصطفى» ما وصل إليه الغرب من نفوق زائف لغة الشرق، فالغربي بنى تطوره منذ نحو ٥٠٠ عام فقط على الفردية، والاهتمام بالمادية والتعلق بالجسد على حساب الروح، وبالتالي وصل إلى نتائج من القلق، والقلق المرافق دوماً لكل ما يقفحه من ثمار، ولذلك لا يمكن لهذه الحضارة من الاستمرار، فهي مبنية على أسس هشّة، كما يوضح الكاتب في كثير من الأمثلة، ويشرحها لكنه يضع في النهاية مثالين من الكتاب والمفكرين: «طافور» ممثلاً الشرق، و«غوته» ممثلاً الغرب، وكلامهما مفكران، لكن أشرقهما الفكر والكتابي والروح، فالشرقي اعتمد الإيمان وتقديس الجمال والخير، والغربي اعتمد الخوف والملل والقلق دوماً، وهذا يظهر بجلاء في كتابات ومؤلفات كل منهما.

حضارة التمزد

من هذا القسم نتقطف ما كتبه «شاكر مصطفى»: «... تاريخ الحضارة الغربية ما هو إلا ثورة متصلة، وحياتها



شاكر مصطفى



الحضارة ثورة متصلة.. وتمرد على ذاتها.. وصراع للهدم والبناء

ليست غير تمرّد على ذاتها وصراع لا يبدأ مع قيم تخلّفها ثم تنقضها، وتبنيها لتهدمها فعل الطفل الحنق الغضوب. وأباً لستطيع أن تراقب تمرّد هذه الحضارة منذ فجر نهضتها في القرن الخامس عشر أي منذ أخذت فردية الغربي تبرز وتنشل نفسها من الجموع المتشابهة في مجتمع القرون الوسطى. فيعد أن كان الفرد إنساناً بين الناس وعضواً في جموع تشبهه من العمال والأقنان يخضع للواجبات ذاتها ويحبها الحب نفسه، ويتعبد في المعبد نفسه، جاء عصر النهضة فأعطى الإنسان الشعور بشخصيته المستقلة وبحقيقته الوحيدة وبوجوده فغرد تركزت الحياة المستوى الإلهي إلى مستوى البشر. ونزل مفهومها من السماء إلى الأرض، وبدأت قصة التمرد الغربي التي قد أستطيع أن أقسمها إلى مراحل أربع...» ثم يشرح هذه المراحل فالتمرد الأول واقعي طبيعي على يد «كوبرنيكوس» و«غاليليه» و«نوتون»، والإيمان بمبدأ التجربة وما يلهمه ويراه بأه عينه، على طريق الفديس «توما»، وبالابتعاد عما ضلّه الإنجيل ومبادئ «أرسطو» الفلسفية، ومنه تطور فجاءت النزعة الفردية وصولاً للاتجاه الثاني وهو العقلاني للجرد بل الفردي، فطفا تفكير «ديكارت» و«كانط»، وكانت مبادئها هي السائدة! ومع مرور الوقت ليست الفردية ثوبا جديداً مبهرجاً كسرت من خلاله كثيراً من القواعد والقوانين والمنطق من خلال الاتجاه الإبداعي العاطفي، فكان رواده من «هيغل» إلى «بيرون» و«نيتشة»، و«شوبنهاور»، و«غوته» وصولاً إلى «ستاندال» وغيره من الأسماء. من هذا التعدد تفرعت مذاهب كثيرة منها الرمزية والتكبيرية والسريالية... الخ. وفي النتيجة كل هذه المراحل تعزز في تمردها المذاهب الشخصية، ففي الفلسفة نجد الوجودية، وفي الأخلاق نجد النفعية، وفي الفن نجد الإحساس الشخصي.

بين حضارة الغد وحضارة الجسد

أقسام أخرى في هذا الجزء «حضارة الطين» ناقش الكاتب فيها مجموعة قضايا مهمة بطرح أسئلة منها: هل نجح العلم في الوصول للإنسان للسعادة؟ من خلال قسم «حضارة الجسد» نأفياً الإجابة بنعم، بعد الفناء نظرة شاملة على منجزات العلم وما حققه من خراب وتدмир، لكنه يضرب مثالا من العلماء وهو «أينشتاين» الذي نظر بشمولية في أبحاثه، فلم يتزمت جزواً، ولم يهمل الإنسان في دراسته، ومن أقواله في الأعمال العلمية: «إنها أعمال جدية بالعنات»، وأيضاً: «إن العلم لم يستعمل حتى

اليوم إلا في خلق العبيد»، لأن العلم أخفق كإنتاج إنساني مفيد. وفي قسم «حضارة الغد» سعى المؤرخ «شاكر مصطفى» لتحليل واستقراء الحضارة الإنسانية القبلية كيف ستكون، من خلال التفكير بإنسان الغد، وكيف ستكون مواصفاته، ومنها استقراء ملامح الحضارة التي ستأتي، ويرأيه إنها ستكون حضارة خاضعة لقانون التطور، وعالية الشكل، وعلمية بصورة جديدة.

الإنسان والعلم

عكست المرأة التي صنعها الإنسان في العلم كل صور الكون إلا صورة الإنسان نفسه؛ وذلك لثلاثة أسباب ذكرها الكاتب، أولها: هو توجه الإنسان لتقصص الطبيعة والاختراع الآلات، فلم يعد بحاجة للتفكير في النفس الإنسانية. ثانياً: يهوى الأدمي في الأصل تأمل الأشياء المبسطة والنسب الهندسية، وهذا ما يتوافر في عالم المادة الجامد، والذي ير الربح والرفاهية عليه، ثالثاً: العضوية الحية معقدة التركيب ملتوية الدراسة. وتلك الملمات الدافعة من الشعور والاشعور في أعماقها أمور ضبابية تتأبى على القياس والبساطة.

إنسان هذا العصر

لا يتفق اثنان في معرفة النفس البشرية ومكوناتها، وقد دعا «سقراط» الإنسان للبحث عن نفسه فقال: اعرف نفسك بنفسك، وبعده جاءت تعاريف كثيرة للإنسان فهـ«أفلاطون» عرفه بأنه حيوان عاري الجسد قائم على قدمين، فجاء «بوجين» يرمي ديكا منتوقاً ليقول هذا إنسان أفلاطون! ثم جاء «أرسطو» فقال الإنسان حيوان فيلسوف، وتناثت التعاريف بعدما. ونذكر أبيات الشاعر «إيليا أبو ماضي» حين قال:

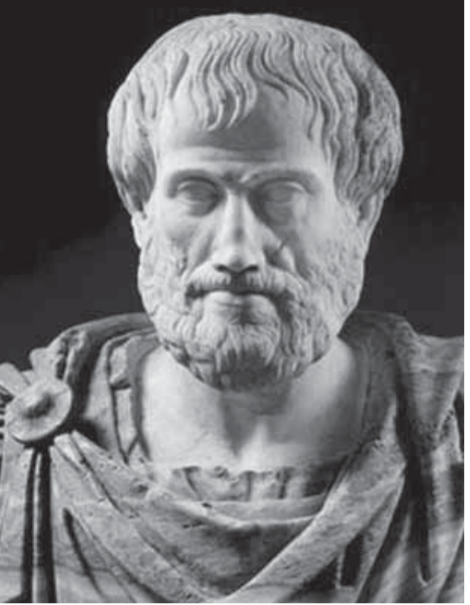
إنتي أشهد في نفسي صراعاً وعراكا
وأرى ذاتي شيطاناً وأحياناً ملاكا
هل أنتي شخصان يبيتا ذلك مع هذا اشتركا
أم ترائي وأهماً فيما أراه... لست أدري!

في الإنسان أيضاً

يتقصى مؤلف كتاب «حضارة الطين» تعاريف متجددة، ومحاولات عدد من الباحثين في الكشف عن معنى الإنسان في قسم «الإنسان لدى قادة الفكر» لكن من دون الوصول إلا لأجوبة كثيرة ومتناثرة ومتعددة ومتباينة: في قسم «الإنسان وما فوق الإنسان» أمثلة كثيرة يضربها لنا الكاتب في أشكال رقي الإنسان والتوق للكمال، وصولاً



غوته



أرسطو

وطبيعة، وهذه الأرقام وإن كانت تتعلق تعلقاً لا انضمام له يعالِم الأحداث التاريخي، المتغيّر أبداً، الناثر أبداً إلا أنها تبقى فوق متناول القانون والمعايير والتقويم!».

«شاكر مصطفى»

«ولد في إحدى حارات دمشق القديمة وتعلّم في مدارسها، حصل على الشهادة الثانوية عام ١٩٣٩ لينتقل إلى القاهرة ويدرس التاريخ في جامعة فؤاد الأول ويتخرج فيها عام ١٩٤٥ حصل على الإجازة الجامعية. ويعود إلى دمشق ليكون أحد مدرسي مادة التاريخ في عدد من مدارسها الثانوية وفي دار المعلمين الابتدائية. في الفترة الواقعة بين ١٩٤٥ و١٩٥٥ شغل عدداً من الوظائف في وزارة المعارف منها: مدرس مادة التاريخ كما ذكرنا، ومدير للمعارف محافظة درعا، ومدير لدار المعلمين الابتدائية في دمشق، ثم أمين للجامعة السورية. بعد ذلك عمل مستشاراً ثقافياً في السفارة السورية بالقاهرة عام ١٩٥٦ فقاماً بالأعمال في السودان عام ١٩٥٧، وفي عام ١٩٥٨ عُين مفوضاً في كولومبيا، وشغل وظيفة قنصل عام في سفارة سورية في البرازيل من ١٩٦١ إلى ١٩٦٣، ثم سمي مديراً عاماً في وزارة الخارجية وأميناً عاماً بالوكالة، وفي عام ١٩٦٥ تولى منصب وزير الإعلام لفترة قصيرة....»

الأثار الأدبية والفكرية التي أغنى بها «شاكر مصطفى» المكتبة العربية كثيرة، منها:

- العرب في التاريخ.
- حضارة الطين.
- بيني وبينك.
- في ركب الشيطان.
- محاضرات في القصة القصيرة حتى الحرب العالمية الثانية.
- الأدب في البرازيل.
- الاندلس في التاريخ.
- معنى السلام عند إسرائيل، ماذا تريد إسرائيل؟
- موسوعة العالم الإسلامي ورجاله.
- بين الأدب والتاريخ.
- المسيحيون في التاريخ.
- في التاريخ الإسلامي.
- المدن في الإسلام حتى العصر العباسي.
- من ذكريات الغزو الإفريقي.
- وجوه من العهد الصليبي.
- صلاح الدين الفارس الجهاد والمك الزاهد المفتري عليه.
- من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس.

كل سنة والحبايب سالمة.. مناسبة وحوادث للشعور بالآخر



إ. منير الكيال

يحدوني الأمل، وقد قل شهر رمضان المبارك، أن أستمتع من الفرائد للوقوف بعرض الشيء مع ما كان عليه جيلنا نحن أبناء العقد الثالث من القرن المنصرم (العشرين) بشهر رمضان، من علاقات، وما عايشوه من أحداث ومواقف إزاء ما يواجههم من أعباء الحياة حلوها ومرها. والداغع لذلك ما يشعر به جيلنا من حين إلى تلك الأيام من شهر رمضان المبارك.

دفعه للشعور بالأخرين

ومما أذكره في هذا الشأن من أمور وأحداث يشدني الحنين إليها، ما رواه لي الدكتور شكيب الجابري رحمه الله، من أن الرئيس شكري القوتلي ما تعطلت سيراته، وهو في طريقه إلى موقع أرسلاّن الدمشقي صباح ذات يوم، وأنجد الجابري القوتلي بسيارته وذهب به إلى محلة الشيخ أرسلاّن لتفقد المعلمين بإنشاء حاجز أو جدار يفصل المقرّة التي في ذلك المكان عن الطريق العام. لأن ذلك الحاجز كان على نفقة الرئيس القوتلي، يومها لفت نظر القوتلي العمال وهم يتناولون طعام إفطارهم قبيل بدء العمل، وكيف أن هذا فرد أمامه صرة طعامه وقد حوت بضع حبات من الزيتون وآخر رغيفه مع قطعة من الجبن وخبازة وذلك وقد جعل طعامه الذي كان من بيضة مسلوقة لفها مع رغيف معه وشرع يتناولها بنفس هنية ومعتة. حدثت القوتلي نفسه، إن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلى المرضى. فنذر القوتلي لئن عافاه الله مما كان به من المرض، ليوم لأمثال هؤلاء في رمضان إفطاراً شكرًا لله، إيماناً منه بأن الإنسان مهما كان عليه من عز ورفاه، لا يعمل ذلك السعادة والهناء الذي كان عليه أولئك العمال، وقد استجاب الله للقوتلي وعافاه. وأصبح القوتلي ليوم كل عام للفداء مائة إفطار بشهر رمضان المبارك بالثكنة السليمانية، وأصبح ذلك عادة أو سنة متبعة يقوم بها الموسرون وأمثالهم في شهر رمضان فترة طويلة من الزمن.

ما يزال في بجموحة

حكاية أخرى أجديت شديد الرغبة لروايتها للقارئ لكنها هذه المرة عن حسين بك الإبيش الذي كان يمتلك أراضي شاسعة في الغوطة الشرقية في ما يعرف بالبيجات وما حولها. وقد شمل هذه الأراضي قانون الإصلاح الزراعي، فسك الإبيش

ذلك للقوتلي الذي كان يلقب باسم المواطن العربي الأول. وهذا اللقب أطلقه عليه الرئيس عبد الناصر، زمن الوحدة بين مصر وسورية، لتخلي القوتلي عن منصب رئاسة الجمهورية السورية لعبد الناصر، حيناً من القوتلي بالوحدة مع مصر. فلما شكّا الإبيش للقوتلي ما كان من أمر صادرة جانب من أرضيه بالفوطة، نصحه القوتلي بنقل ذلك للرئيس عبد الناصر، وهكذا استضاف عبد الناصر حسين الإبيش، وعند تناول الإبيش الإفطار صباح اليوم التالي مع عبد الناصر، وكان هذا الإفطار عادياً ومن حواضر البيت، حدثت الإبيش نفسه بأنه ما زال يعيش بخير وبجموحة، ولما سأل عبد الناصر الإبيش عن حاجته، أجاب الإبيش بالشكر والحمد لله.. وعاد الإبيش إلى دمشق مسروراً قانعاً شاكرًا لله على نعماته، وفي شهر رمضان المبارك كانت مدينة دمشق حالة تذوّب بها الأثائية وتسود أحوال الشكر على نعماته وعطائه. كان الناس على نحو فريد من البر والتعاطف والتواد، ما يجعل لهذا الشهر مكانة إنسانية أثيرة إلى الجيع فضلاً عما لهذا الشهر من مكانة روحية. ذلك أن الواحد من الناس لا يهنا له عيش إذا جلس إلى مائدة إفطاره، وجاره قد لا يجد ما يقم أوده، فكانت عادة التساكب بين الجيران، فتتكون مائة كل منهم بأشكال وألوان لم تكن بالبال، ومن ذلك ما كانت عليه أسرتي يوم كنت سئك بجارة الجامع بكيوان، حيث يقوم الآن فننق شيراتون عند بداية هذه الحارة، وكان جيراننا متغاربة وهم أسرة الحاج رابع

سوق البيزورية والأزراق

ولعل المرء لا ينسى ما كانت عليه الأسواق وبخاصة سوق البيزورية لتوفير ما يلزم الأسرة من توينون لهذا الشهر، والأسواق الأخرى بأحياء مدينة دمشق وخاصة سوق باب السريجة، وما كان عليه الباعة في تلبية للمشتريين، وما يرافق من مساحة عن نفس هنية رضية، ومن الصور التي عشناها في شهر رمضان المبارك نداء الباعة على أرقاقهم، وأذكر على سبيل المثال أن بائع الخبز بالفرن الذي يقدم أشهي ما بلذ للمرء من أنواع الخبز المشروح والمقوش والمزين بحبة البركة والسمسم، وكذلك الخبز المعروق بالحليب والزبيب (القشلميش) وهو ينادي:

الله وليك ومحمد نبيك صايح!

هذه الأرقام للصايحين.. كل سنة والحبايب سالمة
وبائع الجرائق، وقد اتخذ مكانه بزواية أو جانب من السوق وهو ينادي على أرغفة الجرائد بقوله: ملكك الأمير ما كانت عليه الكفاة المملوقة بالمشقة تخلو من الفول المدمس بالحامض والبندورة المقرومة والبقيوس الناعم، كنت تفرى الزبائن يقفون بالدور عند المحصاني لشراء متعاهم من الفول المدمس والمسبحة.
فإذا حان الإفطار، كنت ترى الشوارع والحارات والأزقة خالية من الناس، كأنها هي في حالة من منع التجول.